بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن دراسة الفكر الإسلامى ومحاولة تقييمه والحكم عليه ووضعه فى المكانة اللائقة به فى سلسلة الفكر الإنسانى إنما يتطلب فى الواقع جهدًا من الباحث ودراسة متأنية ويقظة تامة وجرأة وشجاعة فى مناقشة ما أثير حول الفكر الإسلامى وقدرة المسلمين على النظر العقلى والتأمل الفلسفى.

وكذلك يتطلب البحث أمانة علمية وموضوعية تسهم فى توضيح الأمور وبيان وجه الحق فيها، وخاصة إذا كان البحث بالنسبة للباحث يمثل جوهر تخصصه وموضوع دراسته.

ومن الطبيعى أن يكون الفكر الإسلامى هو الصورة الحقيقية للعقلية العربية وقدرتها على النظر والتفلسف وكذلك أيضًا هو المعبر عن الشخصية المسلمة فى تأملها وانطلاقها.

لذلك كان لا بد عند دراسة هذا الفكر أن نتعرض لما قيل عنه من ادعاءات واتهامات وجهها له جماعة من المستشرقين أقحموا أنفسهم فى دراسات ليست لهم وليست بلغتهم، وزعموا أنهم أصحاب حق فى الحكم على الفكر الإسلامى وعلى العقلية العربية الإسلامية وافتروا فى ادعاءاتهم افتراءات بعيدة عن الحق والصواب.

لقد زعم بعض المستشرقين أن الإسلام يعوق النظر العقلى الحر وينهى المسلم عن التأمل والتفلسف، وعلى ذلك فلم يكن للمسلمين نظر عقلى أو فكر فلسفى.

وأضاف البعض إلى هذا الزعم زعمًا آخر أن المسلمين غير قادرين بطبيعة جنسهم وقدراتهم العقلية على النظر والتفلسف وإدراك الأمور الكلية لأنهم ينتمون إلى الجنس السامى، والاتهام الثالث الذى رَوَّج له المستشرقون هو قولهم بأن نشأة الفكر الإسلامى إنما ترجع للخلاف السياسى والظروف السياسية بعد وفاة الرسول ﷺ واختلافهم حول من يخلف الرسول فانقسموا فرقًا ومذاهب سياسية لا عقائدية، ويقصدون من وراء ذلك أن العقلية الإسلامية غير قادرة على الفكر والنظر فى أمور العقيدة والنص الدينى، لذلك ردوا وجود فكر إسلامى أصيل إلى أسباب غير عقلية وعوامل غير فكرية.

والاتهام الرابع الذى تغالوا فيه هو قولهم بأن الفكر الإسلامى كان عالة على الفكر اليونانى، وأن المسلمين لم يفعلوا شيئًا سوى أن نقلوا دائرة المعارف اليونانية إلى العالم الإسلامى ولم يكن لديهم فكر أصيل مستقل بهم.

إن طبيعة هذه الاتهامات ونتيجة هذه الافتراءات التى زعمها المستشرقون وروَّجوا لها إنما تهدم الفكر الإسلامى من أساسه؛ فما دام الدين الإسلامى عقيدة المسلم يعوق النظر العقلى ويمنع من التعقل والتدبر فليس هناك إذن أدنى فرصة للمسلم أن ينظر أو يفكر ويبدع.

سنبين أن هذا الافتراء غير صحيح ولا يتفق مع الواقع ولا مع النص المنزل فى القرآن الكريم ولا يستقيم مع حقيقة الأمر الإلهى للمسلم فىْ أن ينظر ويفكر ويتعقل ويتدبر.

أما ما زعمه المستشرقون من أن المسلم غير قادر من حيث جنسه الذى ينتمى إليه وعنصره الذى يرجع له على التأمل والتعقل والنظر والتفلسف. سنجد أن هذا الزعم قائم على التعصب للجنس والقصور فى الرأى وعدم الموضوعية فى البحث؛ لأن تراث المسلم الفكرى وإنتاجه العقلى يؤكد قدراته الهائلة وإمكاناته العظيمة التى لا تقل مطلقًا عن قدرات غيره من بنى البشر لأن الناس جميعًا من أصل واحد وجنس واحد.

أما الاتهام الثالث الذى يعزو سبب نشأة الفكر الإسلامى إلى الظروف السياسية وليست لقدرة المسلم على النظر والتعقل فإننا نقول لهؤلاء: إن المسلم مفطور على النظر والفكر. وإن نظره فى أمور دينه وبحثه فى عقيدته هو الذى أنشأ فكره وحدد فلسفته وصاغ مذاهبه.

كذلك سيردّ الفكر الإسلامى هو نفسه على الادعاء الرابع القائل بأن الفكر الإسلامى كان عالة على الفكر اليونانى وأن المسلمين اكتفوا بعملية النقل والترجمة عن الأصل اليونانى.

سنرى كيف فكر المسلم ونظر وتفلسف من قبل أن تصل الفلسفة اليونانية للعالم الإسلامى وأن نشأة الفكر الإسلامى إنما بدأت مبكراً حتى زمن الرسول ﷺ وأيام نزول الوحى واعتكاف المسلم لفهم نصوص القرآن ومعرفة مضمونه وتدبر معانيه وأحكامه.

قال الله تعالى فى تنزيله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران].

فالقرآن الحكيم نبَّه المسلم للنظر والتأمل فى هذا الكون الفسيح، وأيقظ فيه روح العلم والتعقل والتدبر، ففكر وأنتج وأبدع، ولذلك كان من الواجب علينا أن نمكّن للفكر الإسلامى أن يثبت وجوده، ويوضح حقيقة ذاته، ويبين أصالته وقدراته، ويرد على خصومه، ويفند ما أثير حوله من ادعاءات، وما قيل عنه من شبهات.

وقد التزمت فى هذه الدراسة المنهج التاريخى والمنهج الموضوعى ولجأت للمنهج النقدى لتقييم الفكر الإسلامى وتفنيد أقوال المستشرقين وفحص آرائهم لنميز فيها بين وجوه الإنصاف والإجحاف ونبين ما وقعوا فيه من أخطاء وما تعمدوه من إساءات للإسلام وللمسلمين حتى ظنوا أن الغربيين وحدهم هم القادرون على النظر والتفلسف دون غيرهم من خلق الله، مع أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس جميعًا من أصل واحد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ... (١٣)﴾ [الحجرات].

فجميع شعوب الأرض من أصل واحد يجمعها جنس واحد وهو بنو الإنسان، والإنسان واحد فى كل زمان ومكان مكوناته واحدة، وتركيبه واحد، وعقله واحد، فالعقل أعدل الأشياء قيمة بين الناس، والفكر هو السمة الرئيسية والخاصية الأصلية التى اختص بها الإنسان فهو حقًا المخلوق العاقل، والكائن المفكر بطبيعته فهو لا يستطيع أن يتوقف عن التفكير فوجوده هو فكر أو كما قال ديكارت «أنا أفكر إذن أنا موجود»، فالوجود والفكر متلازمان، أى ما دام الإنسان موجودًا فهو يفكر، وقيمة فكره تتضح من خلال إنتاجه العقلى وتراثه العلمى.

والمحك والمعيار لتقييم أى فكر إنسانى هو ما أنتجه هذا الفكر وما قدمه من نظر عقلى هو علم ومعرفة.

لذلك فإذا أردنا أن نحكم على الفكر الإسلامى ونقيِّمه، فلا بد أن نتتبع هذا الفكر فى نشأته وتطوره واتساعه وشموله. والمنهج التاريخى كفيل بتحقيق هذا.

وأيضًا لا بد لنا من أن نعرض لبعض الموضوعات التى خاض فيها الفكر الإسلامى بجدارة، ونظر فيها المسلمون بعمق وأصالة لنحكم فى النهاية على العقلية العربية المسلمة، ونبين قدرتها على النظر والتفلسف من خلال دراستها لأصعب الموضوعات وحلها لأعقد المشاكل.

والمسائل الكلامية والفلسفية التى ذخرت بها كتب ومؤلفات المفكرين المسلمين متكلمين وفلاسفة التى تربو أو تزيد عن الآلاف بل الملايين والتى أشاد بفضلها كثير من عظماء الناقدين.

ومن هنا فلا يمكن قبول رأى فئة متعصبة من المستشرقين دون السماع لأقوال آخرين درسوا الفكر الإسلامى دراسة موضوعية، وأثبتوا له قدرة وأصالة فكرية تحدد له مكانته الطبيعية فى سلسلة الفكر الإنسانى.

وفقنا الله فى هذا العمل الإسلامى الخالص لوجهه، ويسر لنا أمرنا إنه نعم المولى ونعم النصير.

مصر الجديدة فى نوفمبر ١٩٩٠ — **د. سهير فضل الله أبو وافية**